دلائل المآء

لايخفى ان المآء من العناصر التي لا يتمّ بدونها عمران ولا يستغني عنها نبات ولا حيوان ولذلك كان الناس من اقدم زمن يتخيرون النزول في جوار الانهار والمناهل يضربون بجانبها خيامهم او يبنون حولها مدنهم وقراهم وكل موضع لا مآء بهِ احتالوا بجرّ المآء اليهِ من الاماكن القريبة او استنبطوهُ من جوف الارض اذا آنسوا وجودهُ بظهور شيءٍ من علاماتهِ وربما اقتصروا على حفر الآبار يستقونهُ منها على ما في ذلك من المشقة والكلفة

اما الاستدلال على وجود المآء فكانوا يتخذون لهُ بعض العلامات الظاهرة على وجه الارض مما يُشعر بقرب الرطوبة من سطحها وقد توسعوا في البحث عن هذه العلامات وتمييز صادقها من كاذبها حتى صيروها علماً قائماً بنفسهِ سمتهُ العرب بعلم الريافة وهي كلمة مولدة اشتقوها من الريف وهو ما كان من الارض فيه خضرةٌ ومياه . وقد ذكر هذا العلم صاحب كشف الظنون وقال في تعريفهِ هو استنباط المآء من الارض بواسطة بعض الأمارات الدالة على وجودهِ فيُعرَف بعدهُ وقربهُ بشمّ التراب او بالنباتات فيهِ او بحركة حيوان وُجد فيهِ فلا بدّ لصاحبهِ من حِسٍّ كامل وتخيُّلٍ شامل وهو من فروع الفراسة من جهة معرفة وجود المآء والهندسة من جهة الحفر واخراجهِ . انتهى كلامهُ . الاّ انهُ لم يذكر واضعهُ ولا زمن وضعهِ ولا احداً ممن ألَّف فيهِ . والذي يتبين من نصوص اللغة ان العرب الاولين لم يكونوا بمعزلٍ عن هذا العلم وكانوا يسمون صاحبهُ القِنقِن بالكسر

والقُناقِن بالضمّ قال ابن الاعرابي هو البصير بحفر المياه واستخراجها وقال غيرهُ هو البصير بالمآء في حفر القُنيّ والظاهر ان هذا التفسير الثاني مبنيٌّ على اشتقاق اللفظة . وقال ابن برّي القِنقِن والقُناقِن المهندس الذي يعرف المآء تحت الارض وهو معرَّب من قولهم بالفارسية كِنْ كِنْ اي احفر احفر ونقل صاحب اللسان في مادة (ح ز ي) استعمال العرّاف بهذا المعنى وفسرهُ بالذي يشمّ الارض فيعرف مواقع المياه

• وقد بحث علمآء اوربا في هذا العلم واستقروا دلائلهُ وكتبوا فيهِ والظاهر انهُ كان معروفاً عندهم من عهدٍ قديم الاان المتقدمين من اصحابهِ كانوا يموهونهُ بضربٍ من الشعوَذة فيدعون انهم يعرفون وجود المآء في باطن الارض بواسطة ما يسمونهُ بمخصرة الحَزْر وهي قضيبٌ يقطعونهُ من شجرةٍ من البندق او التفاح او غيرهما يحملها اصحاب الريافة وحازرو البخت ونباشو الكنوز فاذا دنوا بها من موضع المآء او الكنز دارت في ايديهم فاستدلوا بها على مكانهِ حتى اذا بلغوا ان يصير المآء او الكنز تحت اقدامهم انتصبت واقفةً فيحتفرون هناك فلا يخطئونهُ . وينبغي ان يكون القضيب الذي تؤخذ منهُ فرخ سنتهِ ويُقطع قبل نصف الليل ثم يُتلى عليهِ شيءٌ من الاقاويل الروحانية والرُقى السحرية الى ما اشبه ذلك من الخزعبلات . قيل واستخدام هذه المِخصَرة في الاعمال السحرية قديمٌ جدًّا ومنها العصيّ التي كانت تستعملها سَحَرَة فرعون وما يُروَى من مثلها عن سَحَرَة اليونان وقد انتقلت من امةٍ الى اخرى في خلال العصور المتقدمة حتى افضت الى عرّافي اوربا الاّ انهم لم يتجاوزوا بها مثل ما ذُكر من كشف الخفايا ومعرفة

اصحاب الجرائم ولها عندهم احاديث عجيبة لا تزال تُتناقل الى هذا اليوم . وقد اهتمت ندوة العلوم الفرنسوية بهذه المسئلة وعينت لفحصها لجنة مخصوصة سنة ١٨٥٣ فاعلنت بطلانها وقرّرت ان ما ذكر من حركة هذه المخصرة لم يكن الا حركة عضلية واذا اتفق ان يصيب الرجل في معرفة شيء من المغيبات فان ذلك لا يتعدى الاتفاق

وعليهِ فالريافيون او القناقن الذين لا يزال اناسٌ منهم الى اليوم يدلون على مواضع المياه انما يعرفونها بالادلّة الخارجية لا بايحآء المخصرة وانما يستخدمون المخصرة بقصد المخرقة والتمويه على الجهال وذوي العقول السخيفة لترويج بضاعتهم

اما تلك العلامات فهي على ما استقراهُ بعض علمآئهم كهمبولد وبرونيار وبومون وأوشر وغيرهم ترجع الى اربعة امور ننقلها في هذا الموضع افادةً للقرآء . اولها صوت حركة المآء في باطن الارض وذلك بان يُثقَب في الموضع الذي هو مظنةٌ لوجود المآء وتوضع الاذن على الثقب او يؤخذ قمعٌ من الورق وتوضع فوّهتهُ الواسعة على الثقب ويُدخَل طرفهُ الدقيق في الاذن فان كان هناك حركة مجرًى قريب سُمع صوت هدير غائر . وينبغي ان يكون هذا التسمّع صباحاً او مسآءً حين تكون الحركات هادئة . على ان هذا الصوت انما يُسمَع اذا كان ثمة مآءٌ جارٍ واما اذا كان المآء راكداً فلا يسمَع شيءٌ بالضرورة ولذلك فاكثر ما يُستدَلّ بهذه الطريقة في الاراضي الجبلية لان المآء هناك يكون على الغالب متحدراً

والثاني ذوبان الثلج في الاماكن التي يسقط فيها فان الموضع الذي

يكون تحتهُ مآءٌ يكون انحلال الثلج فيهِ سريعاً لان ذلك الموضع لمجاورتهِ للمآء واحتجاب المآء فيهِ عن الهوآء المحيط يكون في درجةٍ من الحرارة كدرجة المآء نفسهِ وبالتالي تكون درجة حرارتهِ اعلى من درجة حرارة الهوآء فيذوب الثلج الساقط عليهِ قبل ان يذوب في غيرهِ ولذلك لا يكاد الثلج يتراكم في مثل هذه الاماكن لانهُ لا يلبث بعد سقوطهِ حتى ينحلّ ويصير مآءً

والثالث ظهور ابخرةٍ تنبعث من الارض وتجمُّع البعوض ونحوهِ من الهوامّ الطيّارة وذلك ان رطوبة الارض الباطنة اذا استصحبت من درجة الحرارة ما يذيب الثلج في اوان البرد فان تلك الحرارة يُستدَلّ عليها في بقية الفصول بانتشار ابخرة ضعيفة تُرَى صباحاً قبل طلوع الشمس او مسآءً بعد مغيبها . ثم ان هذه المواضع تكون ولا بد في ايام الحرّ ابرد مما يجاورها فيقصدها البعوض وغيرهُ مما يطير بالقرب من وجه الارض هرباً من حرارة القيظ . على ان كلا الامرين يحدث ايضاً في المستنقعات ومواضع النزّ والغَمَق فينبغي ان تُفحص حالة الارض بحيث يعلم ان ليس فيها شيءٌ من ذلك والا فليس ما ذكر بدليل

والرابع وجود انواعٍ خاصّة من النبات وهي انبتةٌ معروفة لا تعيش الا في الاماكن الدائمة الرطوبة من مثل الحلفآء والصفصاف والقُرّة والنعناع والشقيق . لكن ينبغي ان يُتحقق ان وجود الرطوبة هناك غير مسبب عن عدم ارتشاح المياه السطحية بان يوجد تحت الطبقة الظاهرة من الارض طبقة دلغانية او صلصالية تمسك ما فوقها من الرطوبة المآئية لان هذه

الانبتة تكفيها الرطوبة القليلة ولذلك فقد توجد في الصحارى البعيدة عن مظانّ المآء اذا كانت تربتها من مثل ذلك

وهناك دلائل أخر من نوع التربة وشكل الارض . فاما نوع التربة فلا بد لتجمع المآء في جوف الارض من ان يفضي الى طبقةٍ متماسكة كالصلصال ونحوه من الترَب التي لا ينفذها المآء فيستقر فوقها ويقاس بعدهُ عن سطح الارض ببعد تلك الطبقة . واما شكل الارض فمن المعلوم ان المياه المستبطنة لها منساقةٌ اليها من ظاهرها فينبغي ان يُنظَر الى اقرب المواضع ظنًّا ان تكون المياه السطحية قد انصرفت اليهِ فان كانت تلك الارض سهلاً نُظر الى اسفل المواضع المطمئنة فيهِ لان مياه الامطار والسيول لا بد ان تنتهي اليهِ وتغوص فيهِ وان كانت جبلا او في جوار جبلٍ نُظر الى الاخاديد التي تحفرها السيول في سند الجبل اي في جانبهِ فحيثما التقى اخدودان او اكثر عند حضيض الجبل او في قرار وادٍ كان هناك مظنة اجتماع المياه الشتوية وكلما كان موضع ملتقى الاخدودين ابعد عن منشأهما كانت المياه هناك اغزر وقد قدروا انهُ لا يوجد مجتمع مآء غزير على بعد اقل من ٥٠٠ متر . على ان الجبال لا تخلو ان يكون احد جانبيها منبطحاً والآخر قائماً والمياه قلما توجد الا فيما يلي الجانب المنبطح

هذا جلّ ما وقفنا عليهِ في هذا الصدد ولهم في كل ما ذكر تفاصيل شتى امسكنا عن استيفآئها في هذه العجالة حب الاختصار